رسالــة في دوران الصوفيــة
وثيقة في الدفاع عن الذكر الحركي وموقف النقد الشرعي منه

د. دعاء أحمد - مصر

تفتح «رسالة في دوران الصوفية» نافذة مهمة على جانب من الجدل الذي دار في القرون المتأخرة حول بعض الممارسات الصوفية المنتشرة، وبخاصة ما عُرف بالدوران في مجالس الذكر. والرسالة منسوبة إلى علي بن محمد الميلي الجمالي المغربي المالكي، المتوفى سنة ١٢٤٨هـ، وقد جاءت ضمن مجموعة «رسائل صوفية مخطوطة» التي جمعها وحققها سعيد عبد الفتاح[1].

موضوع الرسالة محدود في ظاهره، لكنه واسع الدلالة؛ إذ لا يناقش المؤلف أصل الذكر من حيث هو عبادة مشروعة، واعتراض الفقهاء على بعض صيغ ما يقوله الذاكر من جهة، وإنما حصر نقاشه على اعتراض الفقهاء على هيئة مخصوصة أُلصقت بالذكر، وهي دوران الذاكرين وتحركهم في المجلس. ومن هنا تظهر حساسية المسألة؛ لأن الانتقال من أصل العبادة المشروع إلى هيئة محدثة يحتاج إلى نظر دقيق، لا يكفي فيه الاحتجاج بعموم فضل الذكر، ولا تصح فيه كذلك المجازفة بالتكفير والتشنيع المطلق بلا تفصيل.

بدأ المؤلف رسالته بنبرة دفاعية واضحة، فذكر أن الناس اضطربوا بسبب إنكار بعض الفقهاء لهذه الهيئة، ثم ساق أقوالًا تحكم على دوران الصوفية بأنه لعب وحرام، أو أنه تشبه بأفعال غير المسلمين، أو أنه رقص محدث. وبعد ذلك شرع في الرد على هذه الاعتراضات، محاولًا إثبات أن الدوران ليس لعبًا، وأنه لا يثبت تحريمه بنص قطعي، وأن تكفير مستحلّه لا يصح؛ لأن التكفير لا يكون إلا في إنكار معلوم من الدين بالضرورة أو استحلال محرّم قطعي الثبوت والدلالة.

وهذه النقطة الأخيرة من أقوى ما في الرسالة؛ فالاحتراز في باب التكفير أصل عظيم، ولا يجوز أن تتحول مسائل السلوك والهيئات المختلف فيها إلى باب لإخراج المسلمين من الملة.

وقد أحسن المؤلف حين نبّه إلى أن ربط كل مخالفة عملية بالكفر مسلك خطر، يفسد العلم والدعوة معًا. غير أن سلامة هذا التنبيه لا تعني صحة كل ما بناه عليه من نتائج. فالمؤلف يدافع عن الدوران من جهة كونه مقرونًا بالذكر، ويستدل بفضائل الذكر العامة، مثل الأمر بالإكثار من ذكر الله تعالى، وكون الذكر من أفضل العبادات. وهذا الاستدلال موضع الإشكال؛ لأن فضل العبادة لا يستلزم مشروعية كل هيئة تُضاف إليها. فالصلاة أعظم العبادات بعد الشهادتين، ومع ذلك لا يجوز أن يخترع الإنسان لها هيئة جديدة ثم يحتج بفضل الصلاة. وكذلك الذكر مشروع مأمور به، لكن هيئاته التعبدية يجب أن تبقى منضبطة بما ورد، أو بما لا يتحول إلى شعيرة راتبة تُنسب إلى الدين بغير دليل.

وتظهر في الرسالة أيضًا محاولة دفع تهمة التشبه، حيث يرى المؤلف أن دوران الصوفية لا يشبه رقص المشركين، بل هو أقرب في ظنه إلى طواف الحجاج، أو إلى دوران الملائكة حول العرش، وهذا من أضعف مسالك الرسالة؛ لأن المشابهة المعنوية لا تكفي لإثبات هيئة تعبدية، والقياس في العبادات باب شديد الضيق، فالطواف عبادة مخصوصة بمكان مخصوص وكيفية مخصوصة، ولا يصح أن يُجعل أصلًا لإحداث دوران تعبدي في مجالس الذكر. كما أن ذكر الملائكة لا يُقاس عليه فعل البشر في هيئة لم يثبت بها نص.

ومن المواضع التي تحتاج إلى تحرير كذلك: خلط المؤلف بين الحركة العارضة والحركة المقصودة لذاتها، فالإنسان قد يتحرك أثناء الذكر حركة طبيعية غير مقصودة، وهذا غير اتخاذ الدوران هيئة راتبة في المجلس. الفرق بين الأمرين دقيق لكنه حاسم؛ فالأول عارض بشري، والثاني تنظيم تعبدي يحتاج إلى دليل. وإذا تحولت الحركة إلى علامة على السلوك والطريقة، وصارت تُقام لها المجالس وتُعرف بها الطائفة، خرجت من دائرة العارض إلى دائرة الشعيرة المضافة.

كما أن استدلال المؤلف بما ورد في لعب الحبشة في المسجد لا يخدم محل النزاع كما ينبغي؛ لأن ذلك كان لعبًا بالسلاح في يوم عيد، لا ذكرًا تعبديًا دائريًا، ولا سماعًا صوفيًا ذا هيئة راتبة، والاستدلال به على إباحة كل حركة في مجالس الذكر توسع غير منضبط؛ إذ تختلف المقامات والأسباب والهيئات والمقاصد. ولا يصح أن تُجمع الوقائع المتباينة تحت عنوان عام هو «الحركة» أو «السرور».

والذي يظهر من قراءة الرسالة أن المؤلف كان منشغلًا بدفع غلوّ المخالفين أكثر من انشغاله بتحرير أصل المسألة. فقد أصاب في رد التوسع في التكفير، لكنه لم يُحكم

التفريق بين الذكر المشروع والهيئات المضافة إليه. كما أن عباراته في ذم المخالفين شديدة، وفيها تجاوز لا يليق بمقام البحث العلمي؛ إذ لا ينبغي أن يقابل الغلو بغلو مثله، ولا التشنيع بتشنيع مقابل.

وتبقى قيمة هذه الوثيقة في أنها تكشف عن طريقة من طرق الدفاع الصوفي في القرون المتأخرة: الاعتماد على أدلة النصوص العامة، وتوسيع دائرة الإباحة، ورد الاعتراضات الفقهية بوصفها تشددًا أو سوء ظن. وفي المقابل تكشف الرسالة عن ضرورة المنهج العلمي المتوازن: فلا يُكفَّر المسلم بمسألة اجتهادية، ولا تُقبل العبادة المحدثة لمجرد حسن النية أو حرارة الوجد.

وخلاصة النظر أن الذكر عبادة جليلة، وأصل من أصول صلاح القلب، لكن شرف الذكر لا يفتح الباب لإحداث صور جماعية راتبة لم ترد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه. والميزان في ذلك ليس الذوق، ولا الوجد، ولا شهرة الطريقة، وإنما الدليل والاتباع وسلامة العبادة من الإضافة المحدثة. ومن هنا تصلح هذه الرسالة أن تُقرأ لا بوصفها حجة نهائية في تقرير مشروعية الدوران، بل بوصفها وثيقة تاريخية تُظهر طبيعة الجدل حول الذكر الحركي، وتدعو إلى إعادة المسألة إلى أصلها: تعظيم النص، وصيانة العبادة، والحذر من التكفير بغير حق، والحذر كذلك من إدخال ما ليس من الدين في الدين.

١- رسالة في دوران الصوفية، علي بن محمد الميلي الجمالي المغربي المالكي، ضمن: رسائل صوفية مخطوطة، ص ٢٨٤، على الرابط:
٢up/mode/https://archive.org/details/rasil_sufia_makhtuta/page/n٤٣٣

الـصوفيـــة والـمغـــول

هيثم الكسواني - الأردن

احتلّ المغول في القرن السابع الهجري أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، وعاثوا فيها فسادًا، وأثاروا الرعب في جميع أنحائه، كان يكفي أن تُذكر كلمة "مغول" أو "تتار" ليصاب المرء بالخوف والهلع، وفي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ارتكب المغول جريمتَهم الكبرى باحتلال عاصمة الخلافة الإسلامية، بغداد، وإبادة أهلها، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، وتدمير كل ما وصلت إليه أيديهم من شجر وحجر وورق.

لكن في مقابل هذه الهمجية والوحشية مع أمة الإسلام وأهل السنة، "تسامح" المغول مع أتباع الفرق المخالفة لأهل السنة، وخاصة منهم الصوفية المنحرفة، "التيار الصوفي علا نجمه بعد اجتياح المغول لبلدان العالم الإسلامي وإسقاطهم للخلافة العباسية؛ لأن هذا الحدث الجلل تسبب في أفول نجم النظام السني في ظل الحكم الجديد الطارئ؛ لكون الخلافة العباسية كانت هي الراعية لذلك النظام، وبأفول نجم النظام السني خلت الساحة الدينية من أي منافس قوي أمام التيار الصوفي"[١].

والمغول "كان شعورهم بأهمية التيار الصوفي مبكرًا، كما أيقنوا في الوقت نفسه مدى الخدمات الكبيرة التي سيقدمها إليهم التيار على المستوى السياسي إن أحسنوا وأجادوا التعامل معه، والذي سيساعدهم ويسهل عليهم حكم البلاد الإسلامية مستقبلاً"[٢].

وقبل أن نتحدث عن السياسة التي اتّبعها المغول لتمكين الصوفية المنحرفة، أو الخدمات التي قدّمتها الصوفية للمغول، نلفت إلى ما ذكره بعض الباحثين من أن الصوفية -التي كانت واسعة الانتشار في بلاد فارس والعراق وفي غيرهما- أوجدت البيئة الخصبة للاجتياح المغولي للبلدان الإسلامية، من خلال العقيدة الفاسدة التي زرعتها بين أتباعها بالاستغاثة والاستعانة بغير الله، وإضعاف الوازع الديني المتصل بالفقه الإسلامي مباشرة، حتى قال شاعرهم:

يا خائفين من التتر   لوذوا بقبر أبي عمر

ينجيكمو من الضرر[٣]

وكما ساهم التصوف المنحرف من تخدير الناس وحملهم على الخمول والكسل والتسليم للاحتلال المغولي بوصفه قدر الله ولا بد من الرضي به وحبه!

وبناء على ما سبق؛ فإن "التتر عرفوا للصوفية فضلها في انتصاراتهم التدميرية، وقدّروها كثيرًا، وأعطوها مركزًا مرموقًا جعلها تهيمن على كل البلاد التي اجتاحها التتر، وقد جلّى هذه الحقيقة أحدُ مشايخ الرفاعية، هو صالح بن عبد الله البطائحي، عندما قال في صراحة تامة لابن تيمية في مناظرته له في مصر سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م: نحن ما ينفق حالنا إلاّ عند التتر، وأما عند الشرع فلا"[٤].

وفور احتلالهم للعراق، أخذ المغول بالتعامل مع "الملف" الصوفي وفق عدد من الإجراءات، نوجزها فيما يأتي:

١- ربط التيار الصوفي بالمؤسسة السياسية، أي "مأسسة" التيار الصوفي، حيث صار منصبا "شيخ الشيوخ" و"شيخ الرباط" من المناصب الرسمية للدولة المغولية، وتم تقليد شيوخ الصوفية مناصب مهمة وتكليفهم بمهمات رسمية مثل القضاء والتدريس وشؤون الوقف[٥].

٢- إعلاء شأن التيار الصوفي، من خلال رعاية مؤسساتهم وتكاياهم وأوقافهم، والمحافظة عليها، وبناء مؤسسات جديدة، والاهتمام بمؤلفاتهم، واحترام شيوخهم وطقوسهم، بل وصل الأمر ببعض قادة المغول وأمرائهم لممارسة بعض الطقوس الصوفية[٦].

المولويـة والمغـول

وغير بعيد عن بلاد فارس والعراق، كان المغول والصوفيون ينسجون علاقات الود والولاء في سوريا وتركيا، من خلال الطريقة المولوية التي تنتسب إلى جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢هـ)، المعروف عند أصحابه باسم مولانا أو مولوي، "فيُذكر مثلاً عند استيلاء المغول على حلب أن خانكاهات الصوفية وتكاياهم كانت تعتبر عند المغول أماكن مقدسة يحرم عليهم التعدي عليها، وكذلك الأمر بالنسبة لليهود"[٧].

وتوطدت علاقة المولويين بالمغول بعد لقاء الرومي بالقائد المغولي بايجو نويان في قونية (مدينة في تركيا)، وكان المغول يصادرون من الناس بيادر القمح، ويستثنون ما كان للرومي أو لأقربائه وأتباعه[٨].

وبسبب كرهه للخلافة العباسية ودولة السلاجقة السنيّة احتفى جلال الدين الرومـي

بالمغول ودولتهم وفرح بانتصارهم وكان يقول: "كان المغول يوم جاؤوا هذه البلاد عراة، مراكبهم الثيران، وأسلحتهم من خشب، أما اليوم فقد تعالوا ، يملكون أعرق الخيول العربية، وخير الأسلحة لديهم ... قد أعانهم الله يوم كانوا في حالة من الضعف، يوم كانت قلوبهم منكسرة وأجسامهم هزلى، فتقبل الله تضرعاتهم(!).. لم ينصرهم الله ويُعلي أمرهم لقوتهم في أنفسهم، بل بعون منه ما جعلهم الأعلين،.."[٩].

وكان جلال الدين الرومي وشيخه شمس الدين التبريزي يغضبان من كل من يحاول أن يعلن حولهما أو في مجلسهما العداء للمغول، أو أن يحدّث الناس بمظالمهم، وعندما لم يستطع أنصار الرومي وأتباعه إنكار ممالأته للمغول أخذوا باختلاق الأعذار له من قبيل القول بأنه كان يفعل ذلك ترغيبًا لهم في الدخول في الإسلام[١٠].

١- مكانة التصوف في مجتمع دولة مغول فارس والعراق (٦٥٦ -٧٣٨هـ) دراسة تاريخية، د. رياض البدراوي.، ص ١.

٢- المصدر السابق، ص ٢.

٣- الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، محمود عبد الرؤوف القاسم.، ص ٧٨٠.

٤- المصدر السابق، ص ٧٨١.

٥- البدراوي، ص ٤.

٦- المصدر السابق، ص ٢٠.

٧- أخبار جلال الدين الرومي، أبو الفضل محمد بن عبد الله القونوي.، ص ٨٢.

٨- المصدر السابق، ص ٨٤.

٩- المصدر السابق، ص ١٠٣.

١٠- المصدر السابق، ص ٨١.